"تآلف الجذور"، عنوان الكلمة التي ألقاها البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، في حفل تسليم وسام جوقة الشرف من قِبَل سعادة سفيرة فرنسا السيّدة غريو Grillo، في مقرّ قصر الصنوبر في 19 نيسان (أبريل) 2022، الساعة السادسة والنصف مساءً.

1. يخالجني شعور بالتأثّر الشديد والفرح العامر، لا أبغي إخفاءهما، سيّدتي السفيرة، يوم اتّصلت بي (كان ذلك في 16 تمّوز (يوليو) 2021) لنقل الخبر أنّ السيّد رئيس الجمهوريّة إيمانويل ماكرون Emmanuel Macron، وأنا أوجّه له الشكر من خلال شخصكم الكريم، قرّر منحي وسام جوقة الشرف الوطنيّ برتبة فارس. أمام علامة التقدير المرموقة هذه، أتوجّه إليكم بخالص شكري على تقديم هذه الشارات لي شخصيًّا. لقد تأثّرتُ بشكل خاصّ لوجودي هنا اليوم في هذا الصالون التاريخيّ في مقرّ قصر الصنوبر Résidence des Pins الذي شهد، في العام 1920، إعلان إنشاء دولة لبنان الكبير. كان أحد الآباء اليسوعيين، الأب لوسيان كاتين Lucien Cattin، الذي كان يشغل المكان رقم 41، يشارك في هذا الحدث على منصّة المقرّ التي لا تبعد كثيرًا عن المكان الذي تواجد فيه الجنرال غورو Gouraud. أودّ أن أرى في هذه الميداليّة صلة بالاحتفال بالمئويّة الأولى الذي فاتنا، ليس للتباهي به، ولكن لمواصلة النضال من أجل تجديد دولتنا اللبنانيّة.

2. في هذا الحفل المُفعَم بالامتنان، من واجبي أن أعبّر عن شكري لكلّ من يحيط بي اليوم، من أقارب وأصدقاء، الأب مايكل زمّيط، الرئيس الإقليميّ للرهبنة اليسوعيّة، والآباء والأخوات، وزملاء العمل من الجامعة، والأقارب، ورؤساء الجامعات، وشخصيّات من عالم التربية، والسفارة الفرنسيّة والمجتمع المدنيّ. إنّ حضور سعادة السفير خليل كرم كرئيس لجمعيّة أعضاء جوقة الشرف في لبنان، هو في حدّ ذاته رسالة مفادها أنّ أولئك واللواتي تُقَدَّم لهم (نّ) هذه الشارات يشكّلون مجتمعًا يتفانى في خدمة الصالح العامّ، والفرنكوفونيّة والإنسانيّة.

سعادة السفيرة، أصدقائي الأعزّاء،

3. في الرسالة التي رافقت إعلان هذا التكريم، قيل إنّه تمّ منح هذه الشارة (أقتبس) "من أجل الدور الذي تمّت تأديته من أجل صيانة المدارس والجامعات الفرنكوفونيّة (الناطقة باللغة الفرنسيّة) في لبنان وتطويرها، فضلاً عن الالتزام لصالح الحوار بين الأديان ولصالح دولة لبنانيّة غير طائفيّة ". اتّضح أنّه من خلال تولّي هذا الدور في هذه المجالات الثلاثة وربّما في مجالات أخرى، لم أكن وحدي أبدًا : فالعديد هم الذين واللوتي عملت معهم (نّ) وأنجزتُ ما استطعتُ القيام به، في الجامعة، في مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" Hôtel-Dieu de France، وفي مدرسة سيّدة الجمهور، وكليّة العلوم الدينيّة، ومعهد الآداب الشرقيّة، ودار النشر "المشرق"

وفي العديد من الجمعيّات مثل "تجمّع الصداقة اللبنانيّ للحوار الإسلاميّ المسيحيّ" Gladic، حيث كنت وما زلتُ ناشطًا فيه. أستطيع أن أقول إنّهم أغنوا تاريخي الشخصيّ وساهموا في جعل استثماري مفعمًا بالشغف والالتزام وحتّى الكفاح. أصدقائي الأعزّاء، إذا كنتم بجانبي هذا المساء، فذلك لأنّنا عملنا معًا لفترة طويلة أو مؤخّرًا، وتمكنّا من تقدير بعضنا البعض. هذا المساء، نحتفل بتاريخ مشترك. تتّجه أفكاري المتأثّرة والفخورة بشكل خاصّ إلى والديَّ الراحلَين، محبوبة وجريس، الذَين غرسا فيّ أنا، كبير أخوتي، كما غرسوا في إخوتي الثلاثة قيم العمل الجيّد الإنجاز، ومراعاة الخير الصغير والكبير، والنزاهة، واحترام الآخر، ومحبّة الوطن، والبساطة، والإخلاص، كإيمان بالمتسامي والثقة بالنفس وبالآخرين. لقد كوّنتني هذه القيم الراسخة فيّ على مواجهة الصعاب ووجّهتني نحو الرهبنة اليسوعيّة حيث ترعرعتُ بفضل مودّة العديد من رفاقي وأساتذتي وآبائي ومرافقتهم، سواء في بيروت أو في باريس، وأنا أفكّر اليوم في البعض منهم، مثل سيادة المطران المونسنيور بولس مطر، المونسنيور يواكيم مبارك، ورؤساء الجامعة الآباء جان دوكرويه Jean Ducruet، وبيار ماده Pierre Madet، وجان دالمه Jean Dalmais، والرئيس العامّ السابق بيتر هانز كولفنباخ Peter Hans Kolvenbach، العالم في الألسنيّة واللغة الأرمنيّة، وسامي خوري، وأليكس باسيلي، وفرانسوا وصالح نعمه، والمفكّرَين إدوارد بوسيه Edouard Pousset، وهنري مادلين Henri Madelin ، والفيلسوف بيار جان لاباريير Pierre Jean Labarrière. لقد عرفوا بذكائهم كيف يوجّهون طاقتي مع تشجيع فضولي وروح المبادرة التي تحثّني على العمل والإبداع.

4. في السابق، في المدرسة الابتدائيّة للعائلة المقدّسة في البوار وفي المدرسة الإكليريكيّة في غزير، أوجّه تكريمي اليوم، ومرّة أخرى، إلى التي علّمتني أصول اللغتين العربيّة والفرنسيّة، الراحلة لوسي خوري، المعلّمة التي أصبحت الأخت لوسي، وكذلك تأليف مقاطع من الجمل باللغتين العربيّة والفرنسيّة، كما علّمتني أساسيّات علم الحساب، قائلة لأمّي الفخورة بابنها، (أقتبس على سبيل المزاح) : "إنّه أسرع من ريح الشمال". أعطتني السيّدة فورموز نعيمه، في الصفوف الابتدائية العليا، تذوّق القراءة والقصص، وأنا أتذكّر تعاطفها وتصحيحاتها النموذجيّة في هذا النوع الأدبيّ. ثمّ، في غزير، كيف لي ألّا أفكّر بمعلّمين مثل نعيم سعاده، ثمّ فريد مراد والكثير غيرهم، وهذا الأخير، المعلّم فريد مراد، من خلال تعليمه للغة اللاتينيّة والمؤلّفين الفرنسيين الأقوياء، "سيّدة اللغات ذات السيادة" « la Dame souveraine des langues » كما كان يسمّي اللغة الفرنسيّة، كان قد جذبني نحو الانفتاح الحقيقيّ على القيم الإنسانيّة والعالميّة التي أدّت بي إلى أن يتمّ انتخابي عدّة مرات، بين التلامذة، رئيسًا لتحرير جريدة "الحائط" في القسمين المتوسّط والكبير. لقد بدأنا في الصفوف التكميليّة العليا، مجموعة صغيرة من التلامذة، في تجاوز جدار الإكليريكيّة (ليس من أجل المغامرات التي قد تخطر على بالكم)، ولكن لشراء الصحف السياسيّة من كشك / حلّاق الركن، بما في ذلك *L'Orient de la Répub*lique (شرق

الجمهوريّة) لألفريد نقّاش ومساء النضال *Le Soir du Combat* لديكران توسباط Dikran Tosbath. في الواقع، إنّ وسام جوقة الشرف الذي أتسلّمه هذا اليوم والذي يجعلنا جميعًا فخورين به، أهديه للمعلّمين، والرفاق، ومناضلي الأمس الذين ساهموا في تنشئتي خلال الستّينيات في غزير، وفي العام 1970 في جامعة القدّيس يوسف في بيروت حيث أكملت بكالوريوس الآداب في الفلسفة وزوّدوني بالترسانة التي أملكها، بالإضافة إلى عامَين دراسيَّين في الجامعة اللبنانيّة حيث تابعتُ العلوم السياسيّة، وكم كان هذان العامان مثمرَين لي إذ، كما في مساري في جريدة **لسان الحال** حيث تزوّدتُ بأسلحتي الأولى كصحفيّ، أتاحا لي إنفتاحًا على عالم الأفكار العالميّة بجميع أنواعها بما فيها العروبة الناصريّة، والماركسيّة، وخاصّة معرفة الشريك الذي أعيش معه انتمائي إلى الوطن نفسه. أهدي هذه الميداليّة إلى الأصدقاء والزملاء ونوّاب رئيس الجامعة، والعمداء، ورجال ونساء اليوم في جامعة القدّيس يوسف في بيروت، والمناضلين من أجل الرعاية الصحيّة الجيّدة في مستشفى "أوتيل ديو دو فرانس" Hôtel-Dieu de France (واسمحوا لي أن أحيّي اثنين من الأطبّاء القدامى من كليّة الطبّ، غيّبهما الموت د. بيار دكّاش والبروفسور روي نسناس) الذَين شاركتُ معهما يوميًّا أفراح المربّي والحكم الرشيد وكذلك تحديّات بلوغ "الأفضل" والتميّز وكذلك آلام الأزمنة الحاليّة، لا سيّما في جعل الصعوبات فرصًا من أجل استمراريّة مهمّتنا التربويّة والاجتماعيّة والإنسانيّة.

5. من الواضح أنّ هذه السمات التي تحدّد مسؤوليّة هذه المهمّة التي طالما فكّرت فيها، وهي مسؤوليّة فريق يتمتّع بالتنظيم البارع، هي في صميم الالتزام من أجل صيانة المؤسّستين الناطقتين بالفرنسيّة وتطويرهما. في هذا العمل الدؤوب، لطالما كان شعار حياتي هو ما لخّصه توما الأكويني Thomas d'Aquin بالكلمات التالية فقال : **"في الواقع، إنّ إرسال النور للآخرين أفضل من مجرّد رؤيتهم له ؛ وتقديم الحقائق للآخرين أفضل من مجرّد التأمّل فيها."**

أوّلاً، بالنسبة إلى المهمّة التربويّة، سواء في مدرسة سيّدة الجمهور أو في الجامعة، فإنّ مواءمة حوكمتنا مع أفضل معايير الجودة المصدَّقة من خلال اعتماد برامج المؤسّسة وأنماط عملها، كانت مصدر اهتمام دائم ودليل موجِّه لأعمالنا. من التربية اليسوعيّة، أحتفظ بضرورة رعاية كلّ شخص (*cura personalis*) والإصغاء إلى روحه ورغباته. إحساسنا الداخليّ المعروف بأنّ "التلميذ والطالب هما علّة وجودنا" يندرج ضمن هذه الحركة ؛ إنّه ليس شعارًا، ولكنّه مشروع يندرج في صميم التعليم والتنشئة في جميع المجالات التي توفّرها المؤسّسة، ويغرس مهارات التنوير في كلّ فرد، أي حسّ الأسلوب، والحرّية، لا بل المسؤوليّة، والانضباط، والصبر، والتفكير النقديّ، والمساءلة، وطرح الأولويّات، وإتقان اللغات بشكلٍ عامّ والفرنسيّة بشكلٍ خاصّ كدليل للإنجاز اللغويّ ؛ في هذا السياق، لا أريد أن أتحدّث عن الانحسار الذي يعاني منه التعليم باللغة الفرنسيّة في البلاد، ومن أجله يجب أن نكون في يقظة دائمة، بل سأتحدّث عن الأزمة التي يمرّ بها التعليم المدرسيّ والتعليم العالي بسبب

عدّة عوامل، وعلى وجه الخصوص إنخفاض مستوى إتقان اللغات بشكلٍ عامّ بين شبابنا، ممّا يطرح مشكلة في التعلّم ومستقبل التعليم. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ التنشئة المستمرّة والتنشئة الذاتيّة المتوفّرة لفرق التعليم في جامعتنا حول مستجدّات أصول التعليم الجامعيّ هما جزء من هذه الرؤية وذلك من خلال جهود البحث العلميّ الشخصيّ والمجتمعيّ. ثانيًا، هذه التربية هي إجتماعيّة، كما سبق وقلت، بمعنى أنّه يتوجّب علينا، من ناحية، أن ندرّب النخبة الفكريّة، ولكن من دون النظر في أصلها الاجتماعيّ أو الدينيّ أو الإقليميّ، ولكن النظر فقط في قدرة المتعلّم على تخطّي ذاته من أجل تحقيق ذاته في خدمة مشروع حياته وأسرته ووطنه. إنّها تربية إجتماعيّة، لأنّ معرفة معنى أن تتوفّر لديك وسائل للذهاب إلى المدرسة أو الجامعة، بحسب تعبيرنا، تتطلّب، ضمن إطار خاصّ ولكنّه ذات منفعة عامّة عالية، روحًا قويّة من التضامن يجب ترجمتها عن طريق تشكيل شبكة من المانحين الذين يصبحون، من خلال عطائهم، مواطنين مسؤولين حقيقيين عن الوطن نفسه. وغنيّ عن القول إنّ الأزمة الأخلاقيّة والسياسيّة والماليّة في أيّامنا هذه تلقي بثقلها اليوم على استمراريّة مهامّنا ومؤسّساتنا الإنسانيّة، وبالتالي تدعو إلى المزيد من التضامن والتجمّع حول أهدافها النبيلة.

6. ثالثًا، في هذا الإطار من الانفتاح والإنسانيّة، يندرج الميل إلى التوجّه نحو لقاء الآخر ضمن القيم اللبنانيّة والروحيّة، وكذلك الأمر ضمن الثقافة الفرنكوفونيّة هذه التي أصبحت، من الآن فصاعدًا، مرافقة لكياني الفكريّ والداخليّ. ألم يقل أنطوان دو سانت إكزوبيري Antoine de Saint-Exupéry : **"من يختلف عني لا يؤذيني بل يُغنيني"**. الأطروحتان اللتان قدّمتهما تتناول الأولى منهما قضيّة خلق العالم لدى أبي منصور الماتريدي (من سمرقند في أوزبكستان، وقد زار صديقي أمين خوري هذه المدينة وتأمّل فيها عند ضريح الماتريدي)، والأطروحة الثانية تحمل العنوان التالي **"هل يأتي الخلاص من المدرسة ؟"** وهي تتناول مسألة دور المدارس اللبنانيّة في تعزيز قيم المواطنة والقيم الاجتماعيّة المشتركة. هاتان الأطروحتان تندرجان ضمن اهتمامي بالتفكير في الآخر ومكانته. إذا كان الحوار بين الأديان يحقق تقدّمًا خجولًا ولكنّه غالبًا ما يتّسم بالشجاعة، بدءًا بالاحتفال المشترك الإسلاميّ المسيحيّ بعيد بشارة مريم، والذي كنتُ قد ناضلتُ من أجله، لا يزال الحوار الاجتماعيّ الذي يطال الحياة اليوميّة في الأماكن العامة متاحًا، وهي أماكن ضيّقت عليها الحرب الممتدّة من العام 1975 حتّى العام 1990، وهذا الحوار يجد مكانه، كمساحة لقاء، في جامعة مثل جامعة القدّيس يوسف في بيروت التي أعيد بناؤها على الفور عند ما يسمّى خطّ التماسّ بعد انتهاء الأعمال العدائيّة في العام 1990 ؛ لذلك فهي تمثّل الوعد بعودة المساحة العامّة المفتوحة وتعزيزها، كمكان لتنمية الحوار بين الجماعات المحليّة والحوار الوطنيّ. أظهرت التجربة الناجحة الناتجة عن ثورة 17 تشرين الأوّل (أكتوبر) من أجل تعزيز مثل هذه المساحات، حتى لو تمّ التخلّي عنها للحظة، أنّ مساحة اللقاء هذه، ومواقف الاحتجاج والسخط أيضًا ممكنة تمامًا على الرغم من الصعوبات في تغيير طبيعة نظام طائفيّ ومذهبيّ.

7. هذا يعني أنّ الحوار الإسلاميّ المسيحيّ يجب أن ينجح وينفتح على إمكانيّات جديدة والمزيد من الحقائق الوطنيّة والمشتركة. إنّه يشكّل ضرورة لأنّ قطع تبادل الكلمات العقلانيّة هو اللاعقلاني الذي يفرض نفسه والعنف الذي يتصاعد ويخرج عن السيطرة كما شهدناه. هذا الحوار هو الذي حقّق الانفتاح على ما هو أعظم من الذات وأساسيّ، ومتوغّل عمقًا في الإنسانيّة، ومزوَّد في الوقت نفسه بالإيمان، من خلال بلورة فكر مشترك حول المواطنة، ونبذ الطائفيّة ومفهوم الأقليّات وكذلك رفض التعصّب الدينيّ. هذه الرؤية لدولة المواطن، وهي عمل يقوم به مواطنوها بمجملهم، يجب أن تصبح مشروعًا مدرجًا في الثقافة الوطنيّة والاجتماعيّة، حتّى لو كانت العقليّات لا تزال تتميّز بالرغبة في إقصاء الآخر والخوف من فقدان الهويّة في مواجهة التطرّف. إنّ وثيقة الأخوّة الإنسانيّة، التي وقّعها البابا فرنسيس وشيخ الأزهر في أبو ظبي في العام 2019، تعطي للحوار رافعة مهمّة يجب ترجمتها في العلاقات الملموسة وخاصّة على المستوى التربويّ في المؤسّسات الاجتماعية، والمدرسيّة والأكاديميّة الجامعيّة. قريبًا، سينشر "تجمّع الصداقة اللبنانيّ للحوار الإسلاميّ المسيحيّ" Gladic حيث أؤدّي دور المستشار التوجيهيّ، دليلًا لهذه الوثيقة حول الأخوّة الإنسانيّة، المخصّصة للمؤسّسات التعليمية والعائليّة والجامعيّة، من أجل إدراج الحوار بين الأديان ضمن منظور توطيد أسس الدولة، كلّ دولة، على أساس المواطنة المشتركة التي لا يمكن أن تتنفّس بدون حريّة، وعلى أساس الأخوّة والممارسة العادلة للسياسة المتحرّرة من كلّ تلاعب، والتي تشير إليها وثيقة أساسيّة أخرى نشرها الأزهر في آذار / مارس 2017 وهي الدعوة إلى المواطنة والعيش المشترك. لقد سبق وأشار مؤسّس لبنان الحاليّ البطريرك الحويّك في العام 1930 إلى العِلَل الأربع التي يعاني منها لبنان وهي : الطائفيّة، وعبادة الزعيم، والزبائنيّة السياسيّة المنتشرة وتجسيدها بالفساد الاجتماعيّ، وانعدام المساءلة، وهي عِلَل تعيق تكوين دولة حرّة حقيقيّة وذات سيادة. في مواجهة هذا الأمر، واجبنا هو الاستمرار في السخط والاحتجاج أمام أولئك الذين يواصلون حماية هذا النظام، بروح من الشباب والحزم، متذكّرين دائمًا جملة أندريه جيد André Gide : **"عندما سأتوقّف عن الغضب، سأكون قد بدأت شيخوختي".**

8. أصدقائي الأعزّاء، قال ألبير كامو Albert Camus ذات مرّة : **"اللغة الفرنسيّة هي وطني"** ؛ إلا أنّني، في الرسالة التي كتبتها من أجل الحصول على الجنسيّة الفرنسيّة، قلت : "أصبحت اللغة الفرنسيّة منزلي"، وأنا في كفاح مستمرّ من أجل أن تصبح هذه اللغة ثقافة الانفتاح على عالم الحداثة والعلوم وأفكار عصر التنوير، منذ اليوم الذي استقرّت فيه كلغة تعليم وتواصل في منتصف القرن التاسع عشر في جبل لبنان، كما يبيّنه مؤلَّفا كتاب "إرساليّة غزير اليسوعيّة" خليل كرم وشربل متّى. هذه الفرنكوفونيّة اللبنانيّة، المزوَّدة بقوّة ملايين الناطقين بها، والمتجسّدة في مجتمعنا، والمختلفة بعض الشيء عن الفرنكفونيّة المتداولة في المدينة، ليست غريبة أبدًا

عن واقعنا الثقافيّ ؛ إنّها تجعل من لبنان هذا نموذجًا غير مسبوق في نوعه، لا بل تكرّسه بلدًا للحرّيات، بالأمس كان بلدًا للطوائف، اليوم وغدًا هو بلد الحريّات الفرديّة وفقًا لدستورنا الذي ينمّي الضمير المستنير لدى كلّ فرد. حين نذكر كلّ هذا، نقول إنّ إحدى مهامّ التعليم في مدارسنا وجامعاتنا تقضي بأن يكون الوساطة المستمرّة بين القيم الخاصّة والقيم الشاملة، وبين الذات والآخر المختلف، من أجل بناء وحدة شخصيّة المتعلّم، بشرط ألا توجد قطيعة أيديولوجيّة تستثني الحوار بين الهويّات. بالتالي، تقدّم اللغة الفرنسيّة مساعدة كبيرة، في إشارة إلى الجملة التي كتبها أحد شعرائنا اللبنانيين الناطقين بالفرنسيّة، صلاح ستيتيه، أحد قدامى خرّيجي مدرسة سيّدة الجمهور: "اللغة ليست لغة فحسب، ولا تُختَزَل باسم أو تسمية، بل هي أيضًا علم نحو وبناء تركيبيّ للجُمَل، أي هي فلسفة وأنطولوجيا وميتافيزيقيا ... فحيث يتمّ التحدّث باللغة الفرنسيّة أو الكتابة بها، يتشكّل مشروع موحّد تقوم قاعدته على الثقافة الفرنسيّة، أي على الأساسيّات".

9. في الختام : هذه الالتزامات الجذّابة، هذه المهامّ المثيرة، بالإضافة إلى بعض الهوايات كالتصوير الفوتوغرافيّ، والموسيقى الكلاسيكيّة والدينيّة والشرقيّة، ودراسة المتصوّفين المسيحيين الشرقيين، والترجمة بين اللغات، كلّها تشترك في شيء واحد : تغيير النظرة على الآخر، وبالتالي على الذات، كآخر، أن نكون مرتاحين مع ذاتنا وفي الوقت نفسه حريصين على الارتقاء إلى مستوى التوقّعات. من أجل لتحقيق هذه الأهداف، تشابكت خيوطي الأربعة في الحياة بشكل مستمرّ، ناسجةً ثلاثة ألوان، اثنان منها مشتركان بيننا، الأبيض والأحمر، بالإضافة إلى الأزرق الذي يحتضن الأرز الأخضر، "تآلف الجذور" أودّ أن أقول، حتّى جديلة جمهوريّة مرنة وصلبة للغاية مكرّسة للآخرين. أنا ملتزم بمشاركة هذه العناصر الأساسيّة لبنائي الذاتيّ بحماس وفرح. أتعهّد، سيّدتي السفيرة، بمواصلة هذا الطريق بقوّة، وتعاطف وتصميم، ضمن حدود الوقت والطاقة، من خلال الذهاب للقاء شاعر من فرنسا، مقاوم اسمه رينيه شار René Char، الذي أصدر الأمر التالي لنفسه، ولكن أيضًا لجميع محبّي رسالتهم قائلين :

"أسرع.

أسرع في نقل حصّتكَ من الخارق والتمرّد والانعام.

فعلًا انتَ متخلّف عن الحياة."

شكرًا لكم على حسن إصغائكم.